

# بين الإسكندر واليوغي



هناك قصص شائعة دونها بعناية مؤرخو الإغريق وغيرهم ممن رافقوا الإسكندر أو تبعوه في حملته إلى الهند. وقد ترجم الدكتور مكرندل أحاديث الرحالة ليسلط الضوء على الهند القديمة. ومن أبرز مظاهر الغزو الفاشل لاسكندر اهتمامه العميق بالفلسفة الهندية وبجماعة اليوغيين والرجال الأتقياء الذين التقى بهم بين الحين والآخر ورغب صادقاً بمصاحبتهم. وفور وصول المحارب الإغريقي إلى تاكسيلا في شمال الهند أوفد أونسكريتوس أحد تلاميذ مدرسة ديوجنيس الإغريقية ليأتيه بالمعلم الهندي المتوحد دانداس الذي كان يعيش آنذاك في تاكسيلا.

وقال أونسكريتوس لدانداس بعد أن عثر على مخبئه في قلب الغاب:

"تحية وسلاماً يا معلم البراهمة! إن الإسكندر ابن الإله العظيم زفس وسيد الخلق أجمعين يطلب منك الذهاب إليه. فإن فعلت أجزل لك العطاء، ولكن إن رفضت فسوف يقطع رأسك."

وتلقى اليوغي برباطة جأش هذه الدعوة الإلزامية، وبالكاد رفع رأسه من فراشه المصنوع من أوراق الشجر، وأجابه قائلاً:

"وأنا أيضاً ابن الإله زفس إن كان الإسكندر كذلك... إنني لا أطلب شيئا مما عند الإسكندر لأنني قانع بما عندي، في حين أراه ينتقل دون جدوى مع رجاله فوق الماء واليابسة، ولا حد لتجواله أبداً.

"أذهب وقل لاسكندر أن الله وحده هو السيد الذي يستحق كل عبادة وتبجيل. إنه الملك الأعظم الذي لا يأمر أبداً بالشر الفظيع لأنه خالق النور والسلام والحياة والماء، وخالق جسم الإنسان وأرواح البشر. وإليه يعود كل الناس عندما يحررهم الموت فلا يبقون بعد ذلك عرضة لشرور المرض.

وواصل الحكيم حديثه بسخرية هادئة:

"إن إسكندر ليس إلهاً لأنه بالتأكيد سيدوق الموت. وكيف يكون واحد مثله سيد الوجود وهو لم يتربع بعد على عرش الكون الباطني ولم يدخل حياً إلى الهاوية، ولا يعلم مسار الشمس فوق أقطار الأرض الشاسعة، وفوق ذلك لم تسمع الأمم المتاخمة باسمه؟! وبعد هذا التعنيف الذي يُعد أقسى ما وقع من هجوم على أذني (سيد العالم) أضاف القديس متهمكماً: "إذا كانت مستعمرات الإسكندر الحالية غير كافية لإشباع جشعه فليعبر نهر الغانج وسيجد قطراً فسيحاً يتسع لجميع رجاله.

"إن ما يعرضه عليّ الإسكندر وما يعدني به من هبات هي أمور لا قيمة لها بالنسبة لي. فالأشياء التي أقدرها وأعتبرها ذات فائدة أو قيمة فعلية هي هذه الأشجار التي أصنع منها مسكني، وتلك النباتات المزهرة التي تمدني بالغذاء اليومي، والماء الذي يروي عطشي. وما عدا ذلك من المقتنيات التي يتم جمعها باهتمام كبير فهي وبال على مقتنيها، ولا تترك في نفوس أصحابها سوى الغم والحسرة اللذين هما من نصيب غير المستنيرين من البشر. أما أنا فأرقد بسلام فوق أوراق وأعشاب الغابة، وإذ ليس عندي ما يستدعي السهر فإنني أنام ملء جفوني مستمتعاً بسبات عذب وهادئ. ولو كان عندي ما يتطلب الحراسة والسهر لأقضّ عليّ مضجعي وحرمني لذة النوم. فالأرض تزودني بكل شيء مما أحتاجه كما تزود الأم رضيعها باللبن. إنني أتجول حيثما رغبت وليس لديّ من هموم تؤرقني أو تنغص عيشي.

وإن قطع الإسكندر رأسي فلن يقوى أيضاً على تدمير روعي. ورأسي الذي سيصمت بعد الموت، وجسدي الذي سيصبح كرداء ممزق سيبقيان على الأرض التي صنعا منها.

أما أنا كروح فسأصعد عندئذ إلى الله الذي غلفنا بالأجساد ووضعنا على هذه الأرض لكي نثبت له – أثناء وجودنا عليها – إن كنا سنمتثل لإرادته ونحيا في طاعته. وعندما نقف أمامه سيطلب منا حساباً عن أعمالنا، وهو القاضي العادل الذي يدين كل الشرور والآثام والاعتداءات، حيث تصبح آفات المظلوم عقاباً للظالم.

دع الإسكندر يرهب بهذا الوعيد أولئك الذين يطمعون بالثراء أو يخشون الموت. إن سلاح الإسكندر ضعيف بالنسبة لليوغيين.

فنحن لا نعشق المال ولا نخاف الموت. اذهب وقل له إن دندامس ليس بحاجة إلى شيء مما عندك، وبالتالي فإنه يرفض المجيء إليك. أما إذا كنت أنت بحاجة إلى دندامس فتعال أنت بذاتك إليه." وتلقى الإسكندر بانتباه عميق جواب اليوغي على لسان أونيسكريتوس، وشعر برغبة متزايدة لرؤية دندامس الذي – بالرغم من عريه وتقدمه في السن – وجد فيه قاهر الأمصار ومدوّخ البلدان أكثر من ند له.

مذكرات يوغي: السيرة الذاتية Autobiography of a Yogi

بقلم برمهناسا يوغاندا

ترجمة حديثة منقحة: محمود عباس مسعود